تقديم

الهجاء عند العرب " على عكس الفخر، يعددون فيه عيوب الخصوم والأعداء، فيذكرون ما في تاريخهم من مخازٍ، وما نزل بهم من هزائم، وما حل بهم من خسائر أو عار، ويرمونهم بأقبح العادات، وذميم الصفات، وكثيرًا ما كان يتخلل هجاءهم وعيد وتهديد، وقد كان الهجاء يوجه إلى الأعداء في معرض الفخر، أو في ثنايا المدح؛ لأن في تحقير الأعداء والحطة من شأنهم رفعة للمفتخر أو للممدوح"(١).

والهجاء يثير فينا الإعجاب بمقدرة الشاعر على لمح النواحي الناقصة ، ومقدرته على إبرازها في قوة وجلاء ، كالمصور الفني يبرز ناحية النقص فيمن يصوره ، وهو كذلك يثير ناحية التهكم الباعثة على الابتسام ، بل على الضحك أحيانا ؛ لذا كان من وصايا جرير في الهجاء قوله : (إذا هجوت فأضحك) " [٢] ، ومن هنا كان الهجاء من ألصق الأغراض الشعرية بفن التصوير .

وقد جاء هجاء الرفاعي متسقا مع تربيته الدينية القويمة ، فقد كان بعيدا عن الفحش والبذاءة والألفاظ القبيحة ، بل كان هجاءً مشوبا بالمرح والفكاهة ، وكأنه يداعب من يهجوهم ، ومن ثم استعان الشاعر بأدواته البيانية على تصوير هذا المقام على النحو الآتي .

أ _ يقول الشاعر [٣]:

أمثلُك يَبتغِي تَصحِيحَ شِعرِي ... وأَنت جَهُولُ عَصْرِكَ والأوانِ

سموتُ مكانةً وعلوتُ قــدراً ... عن الأخطاءِ حتى في البيــانِ

أتجرؤ يا أقل الناس علمـــاً ... على نقدِ الأديبِ أبي المعانِي

لقد دَنَتِ القِيامةُ إذْ تخطَّــى ... حُدُودَ الشِعرِ أذنابُ الزمَــانِ

هذه القصيدة هي إحدى القصائد القليلة التي هجا فيها الرفاعي غيره من الناس ، وكان سبب هذا الهجاء أن أقدم أحد زملائه على نقد قصيدتين للشاعر، فكتب الرفاعي هذه الأبيات

(١) في تاريخ الأدب الجاهلي، علي الجندي ، ٣٧٣، مكتبة دار التراث، طبعة دار التراث الأول ١٤١٢،هـ – ١٩٩١م .
(٢) أسس النقد الأدبي عند العرب ، ٢٤٨ .
(٣) ديوان هاشم الرفاعي ، ٤٦٠ .

وقدم لها بقوله : " أراد الأخ جوده عبد الله مصطفى أن يصحح بعض أبيات من قصيدتي (يوم النصر) ،و(ألام عاشق) ، ويبدلها بأبيات محطمة ذات ألفاظ ما سمعنا بها في أبائنا الأولين ، فكتبت إليه مازحًا هذه القطعة " [1] ، فهو هجاء مشوب بالمزاح والفكاهة ، وهو ما يعكس طبيعة الشاعر الرقيقة والعطوفة .

ولتصوير هذا الهجاء استعان الشاعر بالاستفهام الاستنكاري التوبيخي حتى يقرع زميله و يندمه على انتقاده لشعره .

ثم يعلن الرفاعي عن تفننه في البيان وامتلاكه لناصيته مستعينًا بأبرع فنونه وأجل آدابه وهي الاستعارة حيث قال :

سموتُ مكانةً وعلوتُ قــدراً عن الأخطاءِ حتى في البيــانِ

حيث عبر الرفاعي بالسمو والعلو الحسيين عن الأخطاء ، وكأنها مكان متدن ابتعد عنه الشاعر وارتفع ، وقد نهضت بهذا التصوير الاستعارة بالكناية وأدته في صورة جميلة .

ثم يختتم الشاعر هذه المقطوعة باستعارة تمثيلية تتم تقريع وتوبيخ المهجو ،حيث قال الشاعر :

لقد دَنَتِ القِيامةُ إذْ تخطَّــى حُدُودَ الشِعرِ أذنابُ الزمَــانِ

حيث إن هذه الاستعارة حملت من الهجاء أقذعه ؛ لأنها صورت المهجو بصورة (أذناب الزمان) الذين لا قيمة لهم ولا وزن ، ليس هذا فحسب ، فمع أنهم يتجردون عن أي قيمة ، فهم أيضًا يتجرؤون على حمى الشعر وحدوده ، وهذا يظهر أن تجرؤ المهجو على نقد الشاعر ليس له أي وجه من الاستحقاق ، وهذا ما نهضت بتصويره الاستعارة والاستفهام الإنكاري في هذه المقطوعة .

[1] ديوان الشاعر ، صـ ٤٦٠

ب _ ويقول الشاعر هاجيًا أحد الحاقدين [1] :

أظهرتَ عِندَ جِدالِي سـيءَ الأدبِ فرُحتَ بالنارِ تُبغِي أَخْطَرَ اللعـبِ
مَا زَالَ ذَا الدَّهْرُ يُبْدِي مِنْ عَجَائِبِهِ حتّى غدا الرأسُ مذموماً مِن الذنَـبِ
الناسُ تعرفُ عَلياِئي وَيَجْحَدُهَـا يا معشر الناسِ أَدعُوكُم إلى العجبِ
فراشةٌ رَأَتِ المصباحَ ذا وهَـجٍ فأحرقت نفسها في الضوءِ عن كَثَبِ

هذه الأبيات هي هجاء حقيقي قوي من الشاعر ، فقد قال الشاعر تعليقًا عليها : " نظمت على إثر حدوث مشادة بيني وبين أحد من أولئك الذين أكل الحقد قلوبهم ، وأعمى أبصارهم"[2]، ويبدو أن المهجو قد أساء الأدب مع الشاعر مما دفعه إلى هذا الهجاء اللاذع القوي ، وهذا ما يفسر قوة هذا الهجاء ، حيث إن طبيعة الشاعر طبيعة عطوفة متسامحة ، ولا يقدم على مثل هذا الهجاء إلا لسبب قوي ، وقد قال الله عز وجل (لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا)[3].

أما إذا نظرنا إلى الصورة البيانية في الأبيات ، فقد استخدم الشاعر أسلوب الخطاب كي يوجه النقد مباشرة إلى المهجو فقال الشاعر :

أظهرتَ عِندَ جِدالِي سـيءَ الأدبِ فرُحتَ بالنارِ تُبغِي أَخْطَرَ اللعـبِ

حيث إن طريقة إظهار ضمير الخطاب فيها ما فيها من " إحضار وشهود لحال الكلام وتشخيص له "[4] ، وهي بلا شك إحدى أهم طرائق التصوير .

ثم يمثل الرفاعي لخطورة إقدام المهجو على جداله بسوء الأدب ، فيصور خطورة هذا الجدال بصورة من يلعب أخطر اللعب بالنار ، فيعرض نفسه لخطر الإحراق ، ومما هو ملاحظ في هذه الصورة أن قدوم التمثيل في عقب المعنى الذي صدر به الشاعر القصيدة قد أكسب

(١) ديوان الشاعر ، ٤٦٣ .
(٢) المصدر السابق .
(٣) (النساء :١٤٨) .
(٤) الإعجاز البلاغي ، د/ محمد أبو موسى ، ٣٢١ .

الصورة قوة وإقناعا ، فإنه " مما اتفق عليه العقلاء أن التمثيل إذا جاء في أعقا المعاني ، أو برزت هي باختصار في معرضه ... كساها أبهة ،وكسبها منقبة ،ورفع من أقدارها ،وشب من نارها ، وضاعف قواها في تحريك النفوس الداعية لها ، فإن كان ذما كان مسه أوجع، وميسمه ألذع ، ووقعه أشد ، وحده أحد " [1] ؛ لهذا ناسب هذا التمثيل هذا النوع من الهجاء وأداه بقوة لاذعة .

وفي البيت الثاني يسير الرفاعي على نهج طريقته السابقة فيقول :

مَا زَالَ ذَا الدَّهْرُ يُبْدِي مِنْ عَجَائِبِهِ حتّى غدا الرأسُ مذموماً مِن الذنَـــبِ

فالشاعر هنا أيضا يلجا للتمثيل لكي يدلل بالأدلة القاطعة على غرابة ما حدث من المهجو تجاه الشاعر ، وأنه ما كان ينبغي منه أن يقدم على إسائته تجاهه ، فيشبه الشاعر نفسه ضمنيا بالرأس ويشبه المهجو بالذنب ، ويجمع بين هذين التشبيهين في تمثيل مفعم بالتعجب مما حدث من المهجو تجاه الشاعر .

ثم تختم هذه المقطوعة بهذا التمثيل اللاذع في الهجاء ، حيث قال الشاعر :

فراشةٌ رَأَتِ المصباحَ ذا وهَـــجٍ فأحرقت نفسها في الضوءِ عن كَثَب

فهو تمثيل يصور كيف أهلك المهجو نفسه بتجرئه على الإساءة للشاعر ، فصار كالفراشة التي اغترت بالنيران وحسبتها ضوءا فأهلكت نفسها ، وهذا التمثيل يصدق فيه قول الإمام عبد القاهر السابق : " فإن كان ذما كان مسه أوجع ، وميسمه ألذع ، ووقعه أشد ، وحده أحد " [2].

ج ــ ويقول هاشم الرفاعي في هجاء زملائه في معهد الزقازيق بعد هزائمهم الرياضية [3]:

جلَّ المُصَابُ وَضَاعَ المجدُ والأمـلُ وانهار صرحُ العُلا واستنوقَ الجمـلُ

يا معهدا كان بالأمس القريبِ فتى ببطشه بالأعادِي يُضـــربُ المثـلُ

أضحى جُنودك بعد العزِ في ضعةٍ وأصبحوا وعليهم من أسىً حُلـــلُ

(١) أسرار البلاغة ، ١١٥ ، بتصرف .
(٢) السابق .
(٣) ديوان هاشم الرفاعي ، ٤٦٠ .

لو أنهم باتحادٍ لم شعثهـــــــمُ ما كان يضربُ آسادَ الشرى حمــلُ

هذه القصيدة هي إحدى قصائد الشاعر التي هجا فيها زملاءه الذين كانوا يهزمون في الأنشطة الرياضية في معهد الزقازيق ، حيث كان الشاعر ولوعا بهذه الأنشطة ، ويتفاعل معها بأدبه ، ويمدحهم إن أجادوا وانتصروا ، ويهجوهم هجاءا مشوبا بالمزاح والفكاهة إن خسروا وانهزموا .

وإذا نظرنا إلى التصوير البياني في الأبيات سنرى أن الشاعر يعتمد على الاستعارة لكي يرسم خيالا يصور من خلاله هذا الهجاء الفكاهي المرح .

ففي البيت الأول يستخدم الشاعر الاستعارة التصريحية لتصوير صدى هذه الهزيمة على مكانة معهدهم الرياضية فيقول :

جلَّ المُصَابُ وَضَاعَ المجدُ والأمـلُ وانهار صرحُ العُلا واستنوقَ الجمــلُ

حيث صورت هذه الاستعارة الانتصارات والأمجاد المعنوية في صورة صرح حسي قد انهار بسبب هذه الهزيمة ، فهنا قد استعار الشاعر صورة محسوسة لمعنى معقول ، وهذا النوع من الاستعارة له مكانة عظيمة وشرف كبير .

وفي آخر البيت يستخدم الشاعر مثلا سائرا وهو قوله : (واستنوق الجمل)[1]، وهو مثل يضرب في تبدل الحال إلى الأسوأ هو وقولهم :(استنسر البغاث) ، فهما يُضربان مثلا " للقويِّ يَضْعُف وللضَّعيف يقوى " [2] ، وفي استخدام الشاعر لهذا المثل تصوير لضعف زملائه من بعد قوة ، وقوة لمنافسيهم من بعد ضعف .

(١) "استنوق الجمل"، وهو مثل عربي، يقال إن "طرفة بن العبد" هو أول من قاله، حين سمع "المتلمس" ينشد شعرا له، ويقول فيه:وقد أتناسى الهم عند احتضاره ... بناج عليه الصيعرية مكدم ،والصيعرية: سمة للنوق، فجعلها المتلمس للجمل، وسمعه طرفة ينشد البيت فقال: استنوق الجمل، فضحك الناس، وسارت مثلا ، الصناعتين ، ٨٦ .

(٢) فقه اللغة وسر العربية ، عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور الثعالبي (المتوفى: ٤٢٩هـ) ، ٢٤٣ ، ت : عبد الرزاق المهدي ، دار إحياء التراث العربي ، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م .

ثم من خلال الاستعارة المكنية يبث الشاعر الروح في المعهد الأزهري كي يناديه فيقول :

يا معهدا كان بالأمس القريبِ فتى ببطشه بالأعادِي يُضـــربُ المثـلُ

ونداء العهد يوحي بأن المعهد " يحس بما يحس به الشاعر " [1] من مرارة للهزيمة ، وأنه تألم من تجرع هذه الخسارة ؛ لهذا ناداه الشاعر وذكره بسالف الأمجاد والانتصارات التي زالت وحلت مكانها الخسارة والخيبة .

ولا يزال الشاعر ينسج على منوال الاستعارة ، ولكن هذه المرة الاستعارة التصريحية ، ففي البيت الثالث يقول :

أضحى جُنودك بعد العزِ في ضَعَةٍ وأصبحوا وعليهم من أسىً حُلـــلُ

وهذه الاستعارة ينطوي خلفها تشبيه الهزائم بلباس يلبسه المهزومون ، وهذا يوحي بتلبسهم بالذل والخزي والعار .

ويختتم الشاعر هذه المقطوعة الهجائية باستعارة تمثيلية جميلة فيقول :

لو أنهم باتحادٍ لم شعثـهـــــمُ ما كان يضربُ آسادَ الشرى حمـــلُ

حيث شبه الشاعر وقوع الهزيمة على فرق المعهد من فرق أخرى ضعيفة تفتقد لما يتمتع به معهده من تاريخ للانتصارات ، بهجوم حيوان ضعيف ،وهو الحمل ، على الأسد القوية ، وحذف المشبه ، ورمز إليه بشيء من لوازمه ، وهذا أمر يدعو للتعجب ، ويصور تردى مستوى المعهد في الأنشطة الرياضية .

وهكذا اتسم هجاء الشاعر باعتماده على التمثيل في المواضع التي أراد أن يهجو فيها هجاءا لاذعا ، يقدم فيه الأدلة القاطعة على عيوب خصومه ، ويقرعهم بهذا النوع البليغ من أنواع التقريع .

أما المواضع التي كان الشاعر فيها يهجو زملاءه هجاءً مشوبا بالمزاح والفكاهة ، فقد لجأ الشاعر فيها إلى الاستعارة ليرسم صورا خيالية مرحة يداعب بها زملاءه وأحباءه .

(١) دلالات التراكيب ، ٢٦٤ .